«النصيب . . النصيب يا مولانا» .

هز الشيخ رأسه من اليمين إلى اليسار، قال ماطًا شفتيه . .

«لا تشغل نفسك ولا تعذبها . . لا أنا لها ولا هى لك» .

عندما جاءت رشيدة فى أولى زياراتها إلى مصر قصدت المقهى، لم يتعرف إليها أحد ممن عايشوها وعرفوها، أما عفت فاختفى كأنه فص ملح وذاب، بدت أنيقة، فواحة، فعلاً . . صيغت من جديد، حتى أن الجواهرى تساءل عن العلاقة بين الإنسان فى مرحلة وفترة أخرى من عمره، هل يمكن اعتبار رشيدة المقهى هى عينها؟

تصرفت ببساطة، وراحت ثم جاءت، تأملت المكان الذى أمضت فيه زمنًا تعد الشطائر، أصرت على الوقوف أمام النصبة، صب الشاى بيدها، وعندما أبدى المعلم تأثره ربتت على كتفه، قبلته .

ابتسمت للجواهرى، أقبلت عليه، حتى سبح فى شذا عطرها الذى بقى عالقًا فى المقهى يومين متتاليين، استفسرت عن أحواله، عن عطية بك، لم يستطع منع نفسه من استعادة ما رواه عفت المجنون عنها، وحاش بصره عن التشبث بنصف جسمها الأسفل، وما يحتويه من تكوين نادر، فريد، يؤكد عفت أنه السبب فى انطلاقها، اقتحامها لتلك العوالم . . كان يصمت ثم يهز رأسه أسفًا: من يعرفها لابد أن يعتادها . يدمنها، يتبعها، يلبى كل ما تطلب .

ربما تنتابه حالة حزن فينطوى على نفسه، أو هياج فيلطم معلنًا ندمه لتفريطه فيها، أو يقص بصوت يسمعه الجميع أدق ما كان بينه وبينها .